

الثقاف: الاستراتيجيات والآثار

الأستاذ: لحسن العقون

جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

الثقاف ظاهرة نفسية واجتماعية عامة، تزايد الاهتمام بها في السنوات الأخيرة نظرا لآثارها العنيفة التي باتت تهدد المجتمعات والأفراد في هويتهم وفي توازنهم النفسي والاجتماعي، وهذا من خلال جعل الأفراد يعيشون ازدواجية ثقافية تتجاذبهم في ذلك الرغبة ببلوغ الحداثة والعصرنة مع قلق من فقدان الأصالة والتقاليد في ظل العولمة.

Résumé :

L'acculturation est un phénomène psychologique et social. Elle connaît une grande importance ces dernières années en raison de ces effets qui menacent la stabilité psychologique, sociale et identitaire des individus. Elle a réussi à rendre la culture des individus duale et ambivalente, prise entre deux modes culturels différents.

نتيجة للعولمة وعملية التبادلات الناتجة عن وسائل الاتصال ظهرت ظاهرة التلامس السوسيوثقافي التي لفتت أنظارنا نحو إشكالية الحركية الثقافية في زمن العولمة، لهذا فإننا عندما نتكلم عن العولمة فإننا نتكلم عن هذا التلامس والتلاقي بين الثقافات المختلفة سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، مما يجعلنا نقر أن معظم المجتمعات الإنسانية في العصر الحالي أصبحت مجتمعات متعددة الثقافات مع التسليم بفكرة أن كل جماعة تملك حق التفتح على الثقافات الأخرى.

هذه الوضعية، من التعدد والتداخل الثقافي أو بعبارة أخرى تداخل الحضارات، تجعل الفرد مستقبلاً لأفكار وأنماط سلوكية كثيرة مما يوسع من إدراكاته للأشياء ويفرض عليه تطوير معارفه وتغيير أنظمة تفسير وإدراك العالم الخارجي، اعتماداً على التعدد والثراء الثقافي الذي يميزه، بحيث يجابه الفرد في هذه الوضعية منهجين ثقافيين مختلفين مما يجعله يعيش ثقافته بشكل تقاطعي تتجاوزه في ذلك متطلبات العصرنة وإغراءاتها والتي تتقاطع مع الحاجة إلى الحفاظ على العادات والتقاليد. هذا المعاش يبرز إلى السطح صراعات على مستوى المعايير السيكولوجية والقيم والرموز الثقافية والتي تدفع بالفرد إلى ولوج أولى الخطوات على طريق عملية التثاقف.

لذلك سنحاول من خلال هذا العمل التعرف على ظاهرة التثاقف من حيث حصر المفهوم من مختلف جوانبه ثم محاولة التعرف على خصائص هذه الظاهرة والاستراتيجيات المتبعة من طرف الفرد لتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي في وضعيات التعدد الثقافي. وفي الأخير سنشير إلى القلق الذي يصاحب عملية التثاقف مع ما يخلفه من آثار إن على مستوى عمليات التكيف الاجتماعية أو على مستوى الصحة النفسية والجسدية لدى الأفراد.

الإشكالية:

يعد مصطلح الثقافة من المفاهيم الكبرى في علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، رغم أن استعماله الأول يعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي فقط (موسكوفيتش و ليتون M. Herskovits, R. Linton, 1936). فهو يعبر عن حالة وجدانية وذهنية تتميز بالتناقض بين المثل الاجتماعية والواقع الاجتماعي في مجتمع متعدد الثقافات، أي بين قيم المجتمع الكامنة التي تولد رغبات وطموحات لدى الفرد في حين تقف بيئته الاجتماعية عائقا أمام هذه الطموحات. هذا ما يخلق لديه صراعا داخليا بين متطلباته الداخلية وخارجيا مع العوائق الاجتماعية، فتظهر لديه حالة من عدم الرضا نتيجة عدم تلبية رغباته كالحاجة للتطور المعرفي والثقافي وإقامة علاقات اجتماعية مع الآخرين في مقابل الحاجة إلى تجذر ثابت مع تملك لهوية خاصة ومستقرة، فعدم تلبية هذه الحاجات يدفع بالفرد للبحث عن مصادر أخرى لإشباعها مما من شأنه أن يحدث لديه ثقافا لصالح ثقافات أخرى.

مع ظهور العولمة والمعطيات الاجتماعية الجديدة التي فرضتها السياسات المتعاقبة والأزمات العالمية والتغيرات الاجتماعية السريعة، وكذا التفتح على العالم والغزو الثقافي عن طريق الفضائيات المقرة وأجهزة الانترنت وما تبثه من مفاهيم وقيم لثقافات مختلفة ومتناقضة أحيانا فيما بينها، وهذا بكل حرية ودون ضبط، ترانا نتساءل عن الواقع الثقافي للفرد في مجتمع متعدد الثقافات ووضعيته من عملية الثقافة التي أخذت بعدا عالميا في ظل العولمة، ومن خلال ذلك الوقوف على مختلف الصراعات الناجمة عن هذه الوضعية التي تعيشها هذه المجتمعات ومدى قدرة الأفراد على التأقلم والتعايش مع تلك الصراعات خاصة المتعلقة بالجانب الثقافي.

ولقد جاءت هذه الدراسة لتجيب على التساؤلين التاليين:

➤ ما هي الاستراتيجيات الثقافية التي يتبعها الفرد في وضعيات الاحتكاك والتلاقح الثقافي؟

-ما هي الآثار التي تخلفها عملية الثقاف على المستوى الفردي أو الجماعي؟
للإجابة على هذه التساؤلات نجد بالضرورة ما كان أن نتناول مفهوم مصطلح الثقاف بالتحليل وتحديد مختلف مفاهيمه باختلاف الخلفيات النظرية التي تدرسه، ومن ثمة التعرّيج على خصائص عملية الثقاف وميكانيزماتها التي تحد إلى حد بعيد الاستراتيجيات التي يتبعها الفرد في ثقافته وما تخلفه من آثار إن على المستوى الفردي أو الجماعي.

1. تعريف الثقاف:

1.1 الثقاف لغة:

إن الأصل اللاتيني لمفردة الثقاف (Acculturation)، مستمد من كلمة acculturer والتي تعني تمثل فريق بشري، كليا أو جزئيا، لفريق بشري آخر وتأقلمه مع ثقافة أجنبية متصل بها، أي بمعنى المثاقفة والانسلاخ الثقافي. كما تعني أيضا انتقال سمات ثقافية من حضارة إلى أخرى مع شعور ذاتي وواقعي بالنقص الثقافي، فالحرف a هنا ليس مانعا. هذه الكلمة ليست موجودة في الكثير من المعاجم الحديثة عكس كلمة (deculturation) التي ظهرت قبل ذلك في القواميس بمختلف اللغات⁽¹⁾.

2.1 الثقاف اصطلاحا:

ظهر لأول مرة مصطلح الثقاف على يد الانثربولوجيين الأمريكيين الشماليين (1880) للدلالة على التغيرات في صورتها الثقافية في المجتمعات الحديثة، فالثقاف كمفهوم مستقل تناوله العديد من الباحثين من مختلف الاتجاهات والخلفيات النظرية. لقد تناوله الانثربولوجيون من خلال الدراسات التي تناولت الأوضاع الثقافية عند الشعوب المستعمرة وهذا بالتركيز على التحليل الانثربولوجي لآثار المعتقدات والتقنيات الأوروبية والأمريكية على المجتمعات غير التابعة لها، حيث خلصت إلى أنه لا يوجد في الوقت الحاضر مجتمع أو فرد ما بمنأى عن تبعات الثقاف. بينما علماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي فينظرون إلى

هذا المصطلح على أنه عملية ديناميكية وعامل أساسي من عوامل صقل وتكوين الشخصية العصرية من خلال التفاعل والتواصل مع الآخر . أما بالنسبة لعلماء النفس الميداني والإكلينيكي فيركزون على الجانب السلبي لهذا المفهوم في صورة قلق الثقافة وأثره على مستوى الصحة النفسية والاجتماعية للأفراد والمجتمع.

هذا التعدد في تناول أثرى البحث في مفهوم الثقافة بالعديد من التعاريف:

* يعرف كل من موسكوفيتش ور لينتون وريدفيلد (M. Herskovits, R. 1936 Linton, et R. Redfield) الثقافة بأنه: "مجموعة الظواهر الناتجة عن التفاعل المباشر والمستمر بين مجموعتين من الأفراد ذوو ثقافات مختلفة ، الشيء الذي يؤدي إلى حدوث تغيرات على الأنماط الثقافية البدائية لأحدى المجموعتين أو لكليهما"⁽²⁾.

* كما تعرفه منظمة اليونسكو (Unesco, 1980) على أنه: "عملية اكتساب وتحويل، بدون الحكم على ذلك في ميزان الربح والخسارة، في تكوين الشخصية الثقافية للفرد والجماعة نتيجة للاحتكاك مع ثقافة أجنبية"⁽³⁾.

* أما روجي باستيد (Roger Bastide 1971) فقد قدم التعريف التالي: "يشير الثقافة إلى مجموع الظواهر الناتجة عن الاحتكاك المستمر والمباشر بين جماعات وأفراد متممين إلى ثقافات مختلفة وإلى التغيرات التي تبدوا آثارها على النماذج الثقافية الأصلية لهاته الجماعة أو تلك"⁽⁴⁾.

ولقد ذهب إلى حد تقسيم الثقافة إلى نوعين:

➤ الثقافة المادي: والذي يمس محتوى الشعور النفسي ويقوم بتغييره، لكن يترك طريقة التفكير سليمة، مثال ذلك المهاجرين البالغين الذين يحافظون على طريقة تفكيرهم على الرغم من اكتسابهم لقيم ومعايير العمل والمجتمع للثقافة المستقبلية.

➤ **الثقافة العقلية:** يمس بطريقة لا شعورية طرق التفكير والإحساس ، وهذا حال الأطفال المهاجرين الذين اكتسبوا قيم ومعايير كلا الثقافتين في نفس الوقت، فنجدهم يعيشون ازدواجية ثقافية بحيث يستعملون القيم التقليدية في المنزل وفي المجتمع المحلي التقليدي، بينما يتمثلون بالقيم العصرية في المدرسة وحياتهم الاجتماعية.

التمتع لهذه التعاريف يرى أن هناك إغفال للجانب السلبي لعملية الثقافة الذي يتمثل في حدوث حالة من التوتر واللاتوازن على مستوى الهوية الثقافية للفرد المتأقّف مع ضياع للذاكرة الجماعية للجماعات الاجتماعية التي تعتبر حجر الزاوية في استقرار الجماعة. هذا الجانب السلبي يمس الفرد في ثقافته الأصلية وحتى في شخصيته القاعدية، فهو في معظم الأحوال يستعمل بمفهوم الاستلاب أو التهميش الثقافي مما يجعله يتجاوز التعبير عن التغير إلى الاختلال والاضطراب، يؤكد ذلك شيخ أنت ديوب (Chikh, Ant DOIB 1980) بقوله: "إن الثقافة والاستلاب الثقافي بين الثقافات الأوربية نقصت حدته لأنه يحدث في نفس الحضارة تقريبا، عكس استلاب وثقافة الفرد الإفريقي الذي يتواجد في نفس الوضعية"⁽⁵⁾.

يمس الثقافة معظم الميادين الثقافية كاللغة والدين والعمران والمؤسسات، كما قد يمس مناطق محددة أو حضارات أو أزمان كاملة. إن جميع هذه التعاريف لم تسلم من الانتقاد، ويعود ذلك إلى صعوبة تحديد زمان ومكان ظاهرة الثقافة بدقة والتحديد الزمني للمستوى صفر للثقافة وكذا درجة ثقافة الفرد عبر الزمن، بالإضافة إلى الصعوبة البالغة في تحديد الأفراد المنسلخين من غير المنسلخين في مجتمع ما .

ولمزيد من الإحاطة بهذا المفهوم، سنربط بين الثقافة وبعض المفاهيم المتعلقة به، والتي يمكننا اعتبارها مفاتيح الولوج إلى فهم أعمق وأوضح لهذا المصطلح :

التثقيف أو التنشئة الثقافية: هي عملية سابقة لعملية الثقافة، والتي من خلالها يكتسب الفرد ثقافة مجتمعه الأصلية والتي تتعرض لاحقا بفعل التأثيرات الخارجية إلى عملية ثقافت، وتتميز عن عملية الثقافة حسب روجي باستيد (Roger 1971) Bastide: " كون الثقافة يمس الكبار الذين هذبوا من طرف آبائهم، ويخص أشخاصا سبق تثقيفهم مما يطرح مشاكل وصراعات على مستوى نفسية الفرد، لهذا فمن النادر أن تتوج هذه العملية باستيعاب تام وحققي للثقافة المفروضة"⁽⁶⁾.

➤ **تداخل وتفاعل الثقافات:** هذا التداخل والتدامج الثقافي يفرض عملية ديناميكية ومستمرة بين رموز مختلف الثقافات المتنافسة في إطار ما يسمى بالتفاعل الثقافي، الذي أشار إليه نورالدين طوالي عندما تطرق إلى التشابك المستمر والديناميكي بين ثقافتين مختلفتين ومتنافستين بحيث تتمكن تأثيراتهما المتبادلة من تحديد عملية الثقافة بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، كما يقترحه ر.كونيج (R.Conidj, 1972): "في هذه الوضعية يجابه الفرد من قبل منهجين ثقافيين متناقضين مما يجعل الفرد يعيش ثقافته بشكل تقاطبي تتجاوزه في ذلك متطلبات العصرية وإغراءاتها والتي تتقاطع مع الحاجة إلى الحفاظ على العادات والتقاليد.

هذا المعاش يبرز إلى السطح صراعات على مستوى المعايير السيكولوجية والقيم والرموز الثقافية والتي تدفع بالفرد إلى ولوج أولى الخطوات على طريق عملية الثقافة"⁽⁷⁾.

➤ **الصراع:** يعود الفضل في توضيح المعنى الديناميكي لمفهوم الصراع في علم النفس إلى التحليل النفسي، حيث نجد أن المفهوم الفرويدي للصراع يفترض تلاقي قوتين أو تمثيلين غير متوافقين عند الشخص نفسه، أطلق عليها فرويد (1882 Freud), في بدايات كتاباته تسمية " الإرادة المعكوسة" والتي تظهر كرجبة لا واعية ومكبوتة هي أساس الصراع داخل النفس. هذا المفهوم ينطبق إلى حد بعيد على الصراع الثقافي والقيمي لدى الأفراد المتثقفين في الوضعيات البيثقافية.

التقاطب: يرتبط مفهوم الصراع في علم النفس بمفهوم التقاطب بشدة ، ويؤكد روسلاف سبيني (1970) ذلك في دراسته للصراع أين نُجده يشير إلى أنه: " لا وجود لصراع حقيقي لا يتضمن العمل على مفهوم التقاطب، إذ يبرز هذا الأخير على أنه داخلي في الفرد وهو مدعو أيضا أن يكون معاشا ومنجزا بين البشر". يضيف روجي باستيد (Roger Bastide 1971) أن التقاطب: "بالكاد هو معاش الكائن الذي يتموضع في حدود ثقافتين و الذي يجابه فيه قيم عالين، ويختبر على هذا الأساس صراع القيم الدائم والمقلق أحيانا في وضعية من التداخل الثقافي، والذي تحدده طبيعة التفاعل الثقافي الذي بواسطة التناقضات العديدة التي يدخلها في الحقل الاجتماعي والمعاش السيكولوجي للأفراد يعزز ما يمكن تسميته عند باستيد بهامشية الوضع الثقافي".

هذا الوضع الهامشي يشير بشكل طبيعي جدا إلى الميول التقاطبية ويقود إلى أفعال وسلوكيات قد تكون غير مفهومة دون معرفة وإحاطة حقيقية لمحدداتها النفسية والاجتماعية. فالتقاطب بهذا الشكل سواء كان على المستوى الفردي الإنساني أو الاجتماعي العالمي، يمثل البعد النفسي للجانب المخفي والمبهم لعملية الثقافة، فهو الذي يحدد الانتقال الغير محسوس للنفس نحو الثقافي لتحديد، وبطريقة لا شعورية، ارتباطات الفرد مع ثقافته، أطلق الباحث نور الدين طوالي (1885) على هذه الوضعية النفسية المميزة للمجتمعات المعاصرة الواقعة تحت طائل التغير الاجتماعي السريع اسم التقاطب الثقافي⁽⁸⁾.

تسمح لنا هذه التعاريف باستخلاص حقيقة أن عملية الثقافة هي بمثابة احتكاك بين جماعات ذات ثقافات متباينة، ومن خلال هذا الاحتكاك تتبادل العناصر الثقافية المنتمية لهذا الطرف أو ذلك التأثير فيما بينها مما قد يساهم في تحقيق نوع من الاندماج الاجتماعي، بينما تكون الصفة الصراعية ظاهرة في هذه العملية عندما تكون عملية الاندماج قائمة على الإكراه والضغط بمعنى ممارسة أحد الطرفين السلطة على الآخر، مما يؤدي إلى بروز آليات دفاعية لمواجهة خطر وضغط النسق الثقافي المهيمن والسائد.

2. خصائص عملية التثاقف

1.2 شروط حدوث التثاقف: تتحدد درجة واستراتيجيات التثاقف تبعاً:

1.1.2 نوعية التفاعل:

أ . حسب العدد والامتداد: يشير وليام فوت وايت (William Foot Whyte 1943) في دراسة تحت عنوان "street corner society" إلى نتيجة مفادها أنه كلما كانت الجماعات غير متساوية في العدد كلما كان اختراق معايير الثقافة الغالبة لرموز الثقافة المغلوبة سهلاً ومطمناً لهذه الأخيرة.

ب. حسب التجانس: لقد توصل برينو سورا (Bruno Saura, 1988) من خلال دراسته لعملية التثاقف في حالة "Papao" في المجتمع الفرنسي (خليط من أربعة جماعات أجنبية: جماعة "Maohi"، جماعة "Papao"، جماعة الصينيين وفي الأخير الجماعة الناتجة عن التفاعل بين الجماعات السابقة) إلى أن تثاقف أفراد جماعة الفرنسيين في تفاعلهم مع جماعة "Maohi" يبقى محدوداً جداً بالمقارنة مع التثاقف لدى الصينيين أين نجد شعوراً قوياً بالانتماء، ويعود ذلك للتجانس بين أفراد الجماعة الصينية⁽⁹⁾.

ج. حسب درجة الانفتاح والانغلاق: توصلت العديد من الدراسات بأن التثاقف يتحدد في الكثير من الأحيان بطبيعة التبادلات الثقافية بين الفئات المتفاعلة وهذا تبعاً لدرجة انفتاح أو انغلاق هذه المجتمعات على العالم الخارجي .

2.1.2 طبيعة التفاعل:

أ . حسب إمكانية الاختيار لدى الأفراد: تتغير طبيعة التفاعل الثقافي في الجماعة حسب المكانة الاجتماعية للفرد وكذا طبيعة التفاعل بين الثقافتين، يمكننا أن نحدد ثلاث أنواع من التفاعل بين الثقافات:

➤ التفاعل الحر: وهو حال التفاعل بدون قيود بين ثقافات مجتمعات مختلفة، ويظهر ذلك مثلا في أثر العولمة الثقافية على مختلف ثقافات دول العالم خاصة دول العالم الثالث.

➤ التفاعل المفروض والمسلط: وهذه هي حالة الشعوب المستعمرة ، وتتميز برفض لغة وديانة المستعمر وكذا نظامه الاجتماعي وتمثيلاته الثقافية والاجتماعية من خلال الالتفاف حول الثقافة الأصلية، مثال ذلك شعوب دول المغرب العربي أثناء المرحلة الاستعمارية.

➤ التفاعل الموجه أو المخطط : ويمثل عملية انسلاخية عن الثقافة الأصلية بطريقة عقلانية ومقننة، حسب خطة موجهة لتحقيق ثقاف محدد بإتباع مراحل مدروسة، مثال ذلك مشاريع مساعدة الشباب لتحقيق اندماج اجتماعي جيد في ظل عمليات العولمة الثقافية والاجتماعية.

ب . حسب نوعية التفاعل: نميز هنا نوعين من التفاعل هما:

✓ التفاعل المباشر: مثال ذلك حال المهاجرين المغاربة في فرنسا أو حالة الشعوب المستعمرة وحتى أثر السياح في البلدان المستقبلية يمكن اعتباره تفاعلا مباشرا.

✓ التفاعل غير المباشر: مع الثقافة الأجنبية، ويتم ذلك من خلال أثر الثقافة المنتشرة بقوة وسائل الإعلام السمعية والبصرية وبخاصة الانترنت والفضائيات، يتم هذا التفاعل بصورة واسعة في عصرنا الحالي نتيجة التطور الكبير للتكنولوجيا.

ج . حسب مدة التفاعل: نميز هنا نوعين من التفاعل هما:

➤ التفاعل المستمر والممتد: وهو التفاعل الأكثر دراسة في مجمل الدراسات الحديثة حول الموضوع، مثال ذلك التفاعل بين الثقافة الكولونيلية وثقافة الأهالي في البلدان المستعمرة سابقا، وكذا حال الضغط الرهيب لوسائل العولمة على الثقافات المحلية في عصرنا هذا.

التفاعل غير المستمر: مثال ذلك حال السياح والمبعوثين إلى مختلف بقاع العالم، وأحسن دليل على ذلك أثر هذه الحركات الإنسانية الثقافية من مجتمع إلى آخر في بروز آثار هذا التفاعل واضحة للعيان حتى بعد نهايته⁽¹⁰⁾.

2.2 ميكانيزمات حدوث التفاعل:

كيف تتم عملية الثقاف وما هي ميكانيزماتها؟ لماذا يحدث تقبل معيار ثقافي ما ويرفض آخر؟ هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها بالاعتماد على دراسات تمت في هذا الموضوع، فعلى الرغم من تعقد هذه الظاهرة وتشعبها إلا أن الباحثة الفرنسية الكسندرين برامي (Alexandrine BRAMI,2000) حددت ميكانيزمات وقوعها في وحدتين هما:

1.2.2 رفض الثقافة الأجنبية: يشير جان بورابي (John BURABI, 1978) في كتابه "الاستلاب الثقافي وتعدد الثقافات" إلى أن فشل التنمية في العالم الثالث قد دفعت بمجتمعاته إلى البحث عن تعويض في مجال آخر من خلال محاولات تقوية إرادة استقلالها الثقافي مع رفض تام للعناصر الثقافية الدخيلة ورغبة عارمة للرجوع إلى الأصول، الشيء الذي أدى إلى ظهور ردود أفعال تعتمد على اللجوء إلى الأصالة كآلية دفاعية ضد التحديات الآتية من الخارج بهدف تأكيد الشخصية والهوية الثقافيتين⁽¹¹⁾.

إن رفض الثقافة الأجنبية "ثقافة الآخر" يمكن أن تكون بسبب مجموعة من العوامل الموضوعية أو الذاتية، تحددها الكسندرين برامي (Alexandrine 2000, BRAMI, في ثلاث مجموعات:

١. الثقافة الأجنبية بعيدة كل البعد عن الثقافة الأصلية : مثال المقاومة الناتجة عن التباعد بين هاتين الثقافتين مقاومة الشعب الجزائري لسياسات التغريب الاستعمارية، يلخص الجنرال بيجو ذلك تعبيرا عن فشله في إخضاع الجزائريين: "كلما بالغت في الترشيد كلما تمسك الشعب بدينهم وتراثهم وكلما جوعناهم كلما ازدادوا إيمانا"⁽¹²⁾.

ب. الثقافة قد يؤدي إلى تهديد الاستقرار الاجتماعي ومهدم له: هذا التهديد يس بالدرجة الأولى الهوية الثقافية للجماعة من خلال ضياع المبادئ والأسس التي تقوم عليها عملية بناء الهوية لدى الأفراد، والتي تتكون لديهم في المراحل الأولى من حياتهم وتكوينهم النفسي والاجتماعي.

ج. الثقافة الأجنبية مهددة للتوازن النفسي: يشير وليام فوت وايت (William Foot Whyte 1943) في كتابه "التركيبات الاجتماعية والحركة الاجتماعية" من خلال دراساته على الشباب الايطالي في بوسطن بأن الثقافة الأجنبية تمثل عامل من العوامل المهددة للتوازن النفسي للفرد، فهي خاصة إذا كانت ذات طابع مغربي وتستجيب لأهواء الفرد، تولد لديه صراعا تقاطبيا وثقافيا بين الأخذ بمعايير هذه الثقافة أو التمسك بثقافته الأصلية⁽¹³⁾.

كما أن مظاهر رفض الثقافة الأجنبية تختلف باختلاف الزمان والمكان الذي تتم فيه، وكذا حسب مكانة الفرد أو الجماعة المعرضة لخطر الثقافة، نذكر من هذه المظاهر:

➤ العودة إلى التقاليد والسحر: كعملية لا شعورية للتخفيف من آثار عملية الثقافة يتجه العديد من الأفراد إلى عملية إحياء بعض التقاليد والطقوس السحرية، مثال ذلك ما حدث في الجزائر بعد الاستقلال الوطني من خلال أعمال نورالدين طوالي (1988) حيث يشير إلى أنه منذ الستينيات ظهرت في الجزائر حركة كبيرة في اتجاه إحياء المقدس في نوع من التخفيف من شدة الصراع النفسي الناتج عن المحاولات المستمرة للثقافة في مظهر من المظاهر اللاواعية لرفض الثقافة الأجنبية⁽¹⁴⁾.

➤ ظهور حركات عنيفة ضد الثقافة : يمكننا أن نسلط الضوء على الكثير من الحركات العنيفة في الجزائر والتي يمكن تفسيرها من خلال تناول الثقافي على أنها ردات فعل طبيعية لعملية الثقافة التي صبغت المجال الثقافي الجزائري لسنوات عديدة، وهي حالة الأفراد الجزائريين بعد

الاستقلال حين اتجهوا إلى إحياء الثقافة والهوية الوطنية من خلال التركيز على إحياء الممارسات الدينية بقوة وفرض اللغة العربية لغة رسمية وحيدة في البلاد... الخ، كرد فعل سريع وعنيف ضد السياسات التغريبية للمستعمر إبان الاستعمار، وبهذا المفهوم يمكننا أن نفسر التطرف الإسلامي في وقتنا الحاضر كرد فعل عنيف ضد التأثيرات الثقافية لحركة العولمة الثقافية.

2.2.2 ميكانيزمات التبادل الثقافي: تتم عملية التثاقف عموماً بطريقة متدرجة في ظل مجموعة من الميكانيزمات التي نتناولها فيما يلي:

الاستيعاب والتمثل (assimilation) يتمثل في اندثار كلي وتام للثقافة الأصلية لصالح الثقافة الوافدة ، وهذا من خلال اكتساب الفرد بطريقة كلية وتامة لمعايير ومعتقدات ثقافة أجنبية في مقابل تخليه الكلي عن معايير ثقافته الأصلية.

الازدواجية الثقافية: (la dualité culturelle) تشير إلى عملية نفسية واجتماعية تتميز بمعاش وضغط متواصل بين ثقافتين مختلفتين، يعيش أفرادها ازدواجية تطبع على مستوى سلوكياتهم الاجتماعية ، فتجدهم يخضعون إلى قواعد ومعايير الثقافة السائدة عندما يتواجدون في جماعة يغلب عليها طابع الثقافة السائدة ثم يعودون إلى معايير وقواعد ثقافتهم الأصلية عندما يكونون في مجتمعهم وبيئتهم الأولى.

لقد أعطت راضية طوالي (1979) أحسن مثال على هذه الازدواجية الثقافية في المجتمع الجزائري من خلال موظفة الإدارة العامة التي ما أن تعود إلى منزلها حتى يتوجب عليها الرجوع إلى الأدوار التقليدية للمرأة بينما تسلك سلوك امرأة متحررة في العمل وخارج المنزل في إطار ما أسمته " تعاقب السلوك" وهذا لتحقيق نوع من التوفيق بين الثقافتين الحديثة والتقليدية⁽¹⁵⁾.

الأثر الثقافي: (emprunt culturel) يعتمد هذا الميكانيزم بالأساس على مبدأ الاختيار أي إمكانية الفرد اكتساب معيار ثقافي ما من الثقافة الأجنبية مع حذف وإقصاء لمعايير أخرى ، إذ أنه تقليد بسيط مع استيعاب وإعادة تفسير جزئي لهذا

المعيار إلى أن يصل به إلى درجة الانفصال الجزئي، والذي يشير إلى ثقاف محدود في مجال خاص.

إعادة التفسير: (reinterpretation) يركز هذا الميكانيزم على إعادة صياغة عناصر ومعايير من الثقافة الوافدة حسب أنماط الثقافة المحلية، فهي العملية التي يتم من خلالها تغير معاني ومفاهيم معايير ثقافية تقليدية بواسطة قيام الفرد باستدخال معيار اجتماعي مختار من الثقافة السائدة ثم تكييفه على حسب المعايير التقليدية ونمط معيشة الأفراد في هذا المجتمع. نأخذ مثال على ذلك عمل المرأة، ففي المجتمعات الريفية تقوم المرأة بالعمل في الفلاحة والرعي، فيقوم الفرد هنا بإعادة تفسير هذا المعيار في صالح عمل المرأة في المجتمع الحضري انطلاقاً من أن عمل المرأة حق مشروع ومستمد من الثقافة التقليدية.

3.2 الميزة الارتدادية الانعكاسية لعملية التثاقف:

تم عملية التثاقف في اتجاه واحد لصالح الثقافة السائدة، أو في اتجاهين في عملية تبادل تفاعلي بين الثقافتين وهذا بحسب طبيعة ونوعية عملية التفاعل والمجموعات المتفاعلة والعوامل الخارجية المحيطة بهذا التفاعل:

-التثاقف في اتجاه واحد: ويتمثل في أثر الثقافة السائدة من خلال أفرادها الذين ينقلون صورة من صور التفوق والاستعلاء لهذه الثقافة على الثقافات المحلية، وهذا حال ثقافات الشعوب المستعمرة وحال المهاجرين في المجتمعات الأوروبية والأمريكية الشمالية.

-التثاقف في الاتجاهين التفاعلي: يحدث عموماً في المجتمعات المتجاورة والمنفتحة على بعضها البعض في إطار سياسة التعايش بين الثقافات، وهذا حال الثقافات الأوروبية فيما بينها كالايطالية والفرنسية والانجليزية مثلاً، فعند الحديث هنا عن اتجاه عملية التفاعل نتكلم على عملية تبادلية بحيث تكون إحدى الجماعتين متأثرة من خلال معيار ما، ثم تتحول إلى جماعة متأثرة من خلال معيار آخر⁽¹⁶⁾.

إن ظاهرة الثقافة، من خلال خصائصها، أصبحت ظاهرة عالمية تمس مختلف الشعوب والمجتمعات في مكون أساسي من دعائم تماسك وهوية هذه المجتمعات وأفرادها ألا وهي ثقافتها، لذلك تجدنا نتساءل حول ردة فعل والاستراتيجيات التي يتبعها أفراد هذه المجتمعات في مقابل هذه الظاهرة. فما هي هذه الاستراتيجيات؟

3. استراتيجيات الثقافة:

انطلاقاً من الأبحاث ما بين الثقافات، نجد أن سلوكيات وردود أفعال الفرد تجاه نفس وضعيات التلامس والتفاعل الثقافي ليست نفسها في المجتمع المحلي وحتى في المجتمع الخارجي، تكلم جون بيري (J-W. Berry, 1986) أستاذ علم النفس جامعة أوتاريو في كندا عن نظرية الأنماط الثقافية التي تظهر لدى الأفراد المتشاقفين، تقوم هذه النظرية على رفض الاتجاه الذي يعتبر الهوية هدف محتم وأساسي، والتأكيد على الميزة الدينامية لعملية بناء الهوية مع تحديد الذات في مقابل التغيير الثقافي الذي يمس المجتمع الأصلي تحت تأثير التلامس مع ثقافات أخرى. كما اعتمد بيري في نظريته على مبدأ اختيار الفرد لإستراتيجية الثقافة الذي تساعده على تحقيق التوازن والتكيف، فهو بهذا يعتبر أن الفرد مشارك في عملية الثقافة التي تمس مجتمعه المحلي وهو حر في اختيار أحد النموذجين الثقافيين الذي يراه مناسباً لظروفه سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي.

في عرضه لمشروعه النظري، بدأ بيري بتحديد مفهوم الثقافة والجماعات المتشاقفة، ثم أشار بعد ذلك إلى أن الأفراد الواقعيين تحت ضغط التفاعل بين الثقافات يظهرون تغيرات على المستوى النفسي في ظل الارتباط المتين بين المظهرين النفسي والثقافي أين نجد أن الثقافة تمثل روح الجانب النفسي والنفس تدعم الجانب الثقافي .

قبل أن يشير بيري (J-W. Berry) إلى استراتيجيات الثقافة عند الفرد، أشار إلى الجماعات المتشاقفة انتقاداً منه للدراسات التي تتناول الثقافة على جماعة واحدة

، أهم هذه الجماعات التي تناولها بالدراسة والتي حددها حسب ثلاث أبعاد أساسية " الحركية الاجتماعية، الإرادة في عملية الثقافة، استمرارية التلامس" موضحة في الجدول التالي:

الجدول رقم (1): يمثل تصنيف الجماعات المتناقمة عند بيرى:

لاإرادية	إرادية	الحركية
السكان الأصليين	المجموعات العرقية	المستقرين
المنفيين واللاجئين	المهاجرين نهائيا أو مؤقتا	المهاجرين

استعمل بيرى (J-W. Berry, 1996) مفهوم استراتيجيات الثقافة لدراسة كيفية تحقيق الفرد للتكيف مع تعدد الثقافات في مجتمع ما، يقول بيرى أن اختيار إستراتيجية الهوية يتم بالإجابة عن سؤالين أساسيين يطرحان على الفرد الذي يعيش في مجتمع متعدد الثقافات:

✓ هل من المهم الحفاظ على الثقافة والهوية الأصلية ؟

✓ هل من المهم البحث عن ربط علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية مع الجماعات الأخرى والمشاركة معهم في الحياة الاجتماعية ؟ إن هذين السؤالين والإجابة عنهما تسمح لنا باستخراج أربعة استراتيجيات ثقافية يوضحها بيرى في الجدول الآتي:

الجدول رقم (02) : يحدد أنماط واستراتيجيات التثاقف عند بيرى (17)

هل من المهم الحفاظ على الهوية الثقافية الأصلية ؟			
لا	نعم		
الاستيعاب والتشابه	الاندماج	نعم	هل من المهم البحث عن ربط علاقات اجتماعية مع الجماعات الأخرى ؟
التهميش	الانفصال	لا	

تم عملية التثاقف عبر أربعة مراحل يحددها بيرى (J-W. Berry) كما يلي هي:

✓ مرحلة الالتقاء والتفاعل

✓ مرحلة الصراع

✓ مرحلة الأزمات

✓ مرحلة التكيف: هي النتيجة النهائية لأحدى استراتيجيات التثاقف عند بيرى التالية:

- الاندماج: يرى بيرى (J-W. Berry 1992) أن الاندماج يعني أن الفرد يعمل على الحفاظ على خصائصه الثقافية وهويته الشخصية الأصلية المتمثلة في (اللغة والديانة والعادات والتقاليد والعرف والأعياد...) مع اكتساب بعض القيم الحديثة لإشباع حاجات ومتطلبات التحديث والعصرنة والاقتصاد. فهو يمثل الجانب الايجابي في عملية التثاقف لأننا نلمس الحفاظ على الثقافة المحلية وظهور ارتباط وثيق مع بعض خصائص الثقافة الأجنبية.

- الاستيعاب والتمثل: في حين يرى أن نمط الاستيعاب والنشابه يعني تحلي الفرد عن هويته الثقافية المحلية لصالح الهوية والثقافة الأجنبية مع تشبعه بالكثير من قيمها ومعاييرها.

- الانفصال: يعني محاولة الفرد قطع الطريق عن أي محاولات ربط علاقات مع الثقافة السائدة في المجتمع رغبة منه في الحفاظ على ثقافته المحلية في عملية مضادة للثقافة. في هذه الاستراتيجية أشار بيري إلى عملية التمييز وهي الوضعية التي ترفض فيها الجماعة المستقبلية اندماج أفراد الجماعة الوافدة، وتفرض عليهم نوعاً من العزل الاجتماعي مما يشجعهم على الالتفاف حول ثقافتهم المحلية في عملية دفاعية بحثاً عن تحقيق المكانة الاجتماعية في هذه المجتمع، هذا ما يساعدهم على الحفاظ على ثقافتهم الأصلية.

- التهميش: هي ردة فعل الأفراد عندما يضيعون هويتهم الثقافية قبل أن يحققوا اندماجاً كلياً في ثقافة المجتمع السائدة، في الغالب قد يكون سبب ذلك التمييز العنصري الذي يمارسه أفراد المجتمع السائد على هذه الجاليات⁽¹⁸⁾.

إن اختيار الفرد لإستراتيجية ثقاف واحدة من هذه الإستراتيجيات يعود حسب بيري (J-W. Berry 1992) إلى وجود العديد من العوامل المحددة لكل إستراتيجية، نذكر على سبيل المثال: خصائص المجتمع الأصلي على المستوى السياسي والاقتصادي والديموغرافي، والخصائص الشخصية للأفراد الوافدين (أسباب هجرتهم، مستواهم التعليمي وطموحاتهم وموقفهم المبدئي من الثقافة المستقبلية). بالإضافة إلى الاتجاهات السائدة في المجتمع المستقبل وتكوينه الاجتماعي والإيديولوجي لها دور كبير في تحديد صيرورة حدوث عملية ثقاف الأفراد وخلق محيط محفز للاندماج للأفراد المتثاقفين.

إن هذه الإستراتيجيات (التي هي غالباً عمليات نفسية لاشعورية) تهدف إلى الحفاظ على التوازن النفسي والتكيف الاجتماعي للأفراد خاصة وأن عملية الثقاف تهدد الأفراد في هويتهم النفسية وتماسكهم الاجتماعي من خلال

التشكيك في ثقافتهم ومدى قدرتها على الحفاظ على ترابطهم الاجتماعي وتلبية حاجاتهم الثقافية المتزايدة في ظل العولمة. غالبا ما يصاحب هذه الاستراتيجيات ضغط وتوتر نابع من الازدواجية الثقافية التي يعيشها الفرد في مجتمعه مع صراع الاختيار بين ما هو محلي موروث وما هو أجنبي معاصر، هذا التوتر والضغط يصطلح عليه اسم قلق الثقافة الذي يمثل الأثر المباشر لعملية الثقافة على المستوى الشخصي للأفراد. فما هو قلق الثقافة؟ وما هي الآثار التي تخلفها عملية الثقافة على الأفراد والمجتمعات؟

4. قلق الثقافة:

يعرفه يو جاكسون (Yo Jackson, 2006) على أنه: "القلق الذي يصاحب الفرد الذي يتعرض لعملية ثقافة وانسلاخ ثقافي مع تخليه عن بعض معايير الثقافة الأصلية لصالح معايير الثقافة الأجنبية السائدة"، ويضيف على أنه: "ضغط وتوتر سلبي مرتبط مباشرة بالصراعات والأزمات التي تظهر على مستوى الهوية الثقافية والقيم والأعراف والمعايير والممارسات الموروثة والأنماط المعيشية، واستمرار هذا القلق طوال الوقت لدى الأفراد يؤدي إلى مجموعة من الأعراض المرضية كالاكتئاب والحصر"⁽¹⁹⁾.

يعرفه بيرري (J-W. Berry, 1992) على أنه: "عبارة عن حالة استشارة فيزيولوجية للعضوية تتعلق رداً الفعل فيها بالظروف المحيطة بالفرد للتوصل إلى حالات تكيف كاملة مع الوضعية الاجتماعية السائدة، يتبع هذا القلق الثقافي عموماً بمشاكل في الصحة النفسية والعقلية للأفراد في شكل حصر دائم واكتئاب وأزمات في الهوية واضطرابات في السلوك مع شعور الفرد بالتهميش والاستلاب"، ويضيف أن هذا القلق هو مظهر مصاحب لعملية الثقافة لكنه ليس بالضرورة حتمي الحدوث إذ يتعلق ظهوره بمجموعة من العناصر التي تتحكم في مختلف مراحل هذه العملية وهي: (خصائص المجتمع السائد، خصائص الجماعات المتأقفة، إستراتيجية الثقافة المتبعة من طرف الفرد، الوضعية السوسيوديمغرافية للفرد المتأقفة، الخصائص الشخصية للفرد).

في بداية الأمر لاحظ بيرى (J-W. Berry) أن المفاهيم الثلاثة: الثقافة، مسببات القلق، وقلق الثقافة مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً أحادي الاتجاه، حيث يقول: "في السابق كنا نعتقد أن خبرة الثقافة هي حتمياً منبع مسبب للقلق وأن هذا القلق هو المنبع الأساسي لقلق الثقافة". لكن، ومن خلال دراسة قام بها عام (1987)، لاحظ أن الروابط بين هذه المفاهيم الثلاثة تتأثر بالعوامل السابقة الذكر، فإذا كان تأثير هذه العوامل ايجابياً فإننا سنقف على عملية ثقافة واسعة الانتشار بينما إذا كان تأثيرها سلبياً فإن الاتجاه إلى الثقافة يصاحب بدرجات عالية من القلق والحصر. يوضح هذه الفكرة في الجدول التالي⁽²⁰⁾:

الجدول رقم (03): العلاقة بين درجة الثقافة وقلق الثقافة و العوامل المحيطة بالفرد.

قلق الثقافة	مسببات القلق (العوامل المحيطة)	درجة الثقافة
درجة عالية من القلق	الكثير من العوامل المسببة للقلق	درجة عالية
درجة منخفضة من القلق	القليل من العوامل المسببة للقلق	درجة منخفضة

إن أهمية نظرية بيرى تكمن في توضيحه أن التغيرات التي تصاحب عملية الثقافة ليست فيزيائية فقط كتغيير المحيط والمسكن والبلد، ولكنها تتعدى ذلك إلى الجانب البيولوجي في شكل برامج غذائية وسياسات صحة جديدة، والسياسي كضياح الاستقلالية و الاقتصادي في شكل المكانة الاجتماعية والعمل والأجر، وأخيراً في شكل تغيرات ثقافية واجتماعية كاللغة والديانة والتربية، لأن الفرد يدخل في علاقات جديدة مع الأفراد والجماعات المكونة لمجتمعه الجديد. وأكثر من ذلك عندما نجده يركز في معظم أعماله على دور الفرد في تحديد إستراتيجية

الثقاف التي يعتمدها بحيث أكد على أن الفرد عامل إيجابي في عملية الثقاف لأنه هو من يقرر الطريقة والإستراتيجية التي بها يتثاقف وينسلخ عن ثقافته . وكقند هذه النظرية نجد أن ييري اختصر عملية الثقاف في شكل سلوكات واتجاهات على الرغم من أن الحقيقة الاجتماعية تبين أنها عملية معقدة تشمل الكثير من الأبعاد السياسية والاجتماعية والتاريخية والتربوية والنفسية. كما أنه على الرغم من الدور الإيجابي الذي أعطاه للفرد في اختيار إستراتيجية الثقاف التي يجذبها إلا أنه لم يتناول بالتدقيق أثر الاتصال بين الثقافات على المستوى النفسي للفرد، بمعنى على مستوى الهوية، فييري (J-W. Berry) لم يتعرض إلى عمليات المد والجزر التي تحدث للفرد في محاولاته تحقيق التوازن على مستوى هويته وهذا قبل أن يقع اختياره على إستراتيجية الثقاف التي تناسبه.

5. آثار عملية الثقاف

نهدف في هذا العمل إلى تحديد آثار عملية الثقاف على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي في المجتمع الكلي، فمن خلال تركيزنا الناقد على مختلف الآراء حول الآثار البناءة والهدامة للثقاف نستطيع تكوين رؤية كاملة وصحيحة حول هذه الظاهرة وآثارها:

1.5 على المستوى الفردي: للثقاف آثار عديدة على المستوى الفردي، فهو يلعب دور البناء للهوية الفردية والمهدد لتوازنها في نفس الوقت:

➤ **الآثار البناءة للثقاف:** إن عملية الثقاف تفتح مجال اختيار كبير للأفراد على أنماط الحياة والعمل وعلى المكانة الاجتماعية والقيم التعليمية بهدف إعادة التكوين الاجتماعي للفرد على مفاهيم الثقافة الجديدة. يشير ييرنو صورا (Bruno Saura, 1988) في أعماله على المجتمع الصيني في تاهيتي إلى هذا الأثر الإيجابي للثقاف الذي يساهم في تحرير الفرد من التعقيدات التقليدية. كما يمكن أن تشجع عملية الثقاف على التمکن من تجاوز العوائق البيئية، فالأفراد الذين

حققوا الاندماج في ثقافة المجتمع المستقبل بالشرب بقيمه وبتقافته نجدهم بعيدين كل البعد عن التوتر النفسي وعن اختلال التنظيم الداخلي.

➤ الآثار الهدامة للثقاف: الصراع والانطواء والانحراف: يظهر الصراع الداخلي والبينشخصي بين أفراد المجتمع الواقع تحت رحمة عمليات الثقاف عندما تكون معايير وقيم الثقافتين المحلية والأجنبية مختلفتين إلى حد التناقض الكلي، هذه الوضعية تخلق صراعا حادا داخل شخصية الفرد وتجعله في حالة دائمة من الارتباك والشك في تحديد خياراته الاجتماعية والثقافية، ويقابل ذلك من طرف المجتمع بردات فعل مناقضة ومناهضة لاختيارات الفرد مما يخلق صراعات ذات طبيعة بينشخصية تزيد من التوتر والارتباك الحاصل لديه. كما تولد عملية الثقاف شعورا باللامن عند الأفراد ذوي الشخصية النفسية الضعيفة والذين يتميزون بالانطواء على أنفسهم في عملية دفاعية تتميز بانتشار كبير لميكانيزمات الإنكار والنكوص.

إن اندثار معايير الثقافات الأصلية بواسطة الاندماج في ثقافة الآخر يؤدي إلى ضياع هذه المعايير التي تساعد الأفراد في التعايش الاجتماعي مع ثقافتهم الأم وإلى ظهور العديد من اختلالات تكيف الفرد على المستوى الاجتماعي في شكل مجموعة من السلوكات المنحرفة: كالإدمان على المحذرات والكحول وظهور الأعصبة والاضطرابات العائلية⁽²¹⁾.

2.5 على المستوى الجماعي: أجمع معظم الباحثين على أن الثقاف هو السبب في ظهور العديد من الأنماط الثقافية الجديدة خاصة إذا كان ناتجا عن التفاعل الحر، على العموم يؤدي الثقاف على المستوى الجماعي إلى:

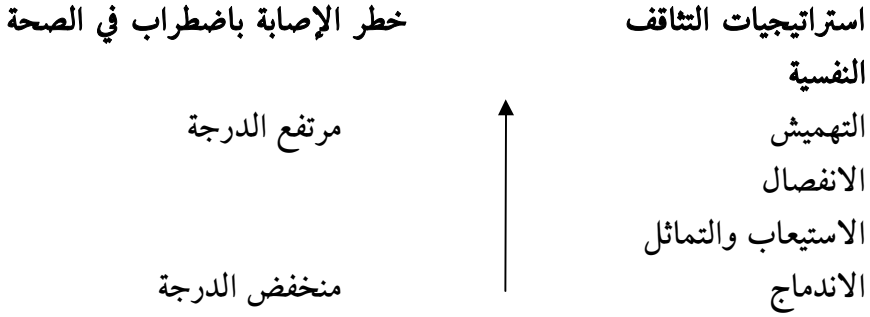
ظهور قيم ومعايير جديد كعملية تعويضية للمعايير السابقة أو كمزيج معها، مما يؤدي إلى حدوث تغيرات على مستوى التنظيم الاجتماعي والثقافي للمجتمع.

ظهر أنماط معيشية جديدة نتيجة للثقاف، مثال ذلك ما لاحظته هنري ماندراس (Henri Mendras, 1984) من أن التغيرات في نمط المعيشة الاجتماعية في الريف الفرنسي بعد الحرب هي ثورة تمت لهذا الفرد كمنعكس تطور بالمقارنة مع السابق.

- ظهور أنواع جديدة من التكوين الاجتماعي والتربوي: ويمثل مجموع العمليات اليومية التي تتم من خلال دور المدرسة والأسرة في الاندماج في المجتمع المستقبل في حالة المهاجرين.

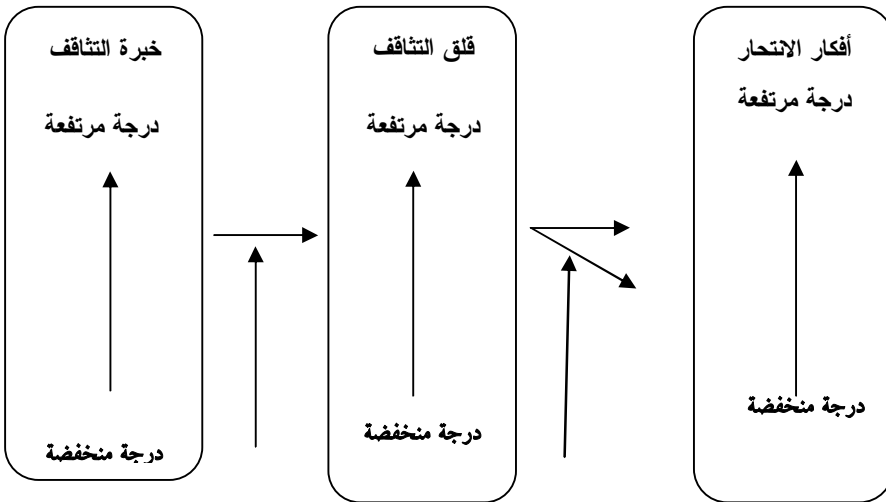
3.5. الثقاف ومشكلات التكيف والصحة النفسية والجسدية : إن الغرض الأساسي من الدراسات المختلفة والعديدة حول موضوع الثقاف هو تسليط الضوء على أثر هذه العملية وصعوبات التكيف التي تصاحبها مع ظهور أعراض الاضطرابات النفسية والعقلية كالاكتئاب والحصر وتعاطي الكحول والمحذرات والتدخين ومختلف الأمراض الجسدية لدى الأفراد المتثاقفين.

لقد توصلت مختلف الأبحاث التي تناولت هذا الموضوع خاصة لدى الجاليات الآسيوية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن العلاقة بين عملية الثقاف والتكيف علاقة معقدة وشديدة التداخل، أين أشارت إلى أن المهاجرين الجدد يكونون أكثر استعدادا وعرضة لظهور اضطرابات التكيف أكثر من غيرهم نتيجة للدرجة العالية من قلق الثقاف التي تظهر لديهم. كما أسفرت دراسات أخرى على التأكيد على الارتباط الوثيق بين الدرجة العالية على مقياس الثقاف وارتفاع نسبة الاضطرابات النفسية والعقلية في أوساط الأفراد المتثاقفين، مثال ذلك دراسة كيم وآخرون (Kim et al, 2009) حول هذه العلاقة اعتمدوا فيها على نظرية الاستراتيجية الثقافية لبيري. تمت هذه الدراسة على عينة قوامها 60 مراهقا أمريكيا ذو أصول صينية وكورية و يابانية مع عينة أخرى من 116 راشد مهاجر إلى و م أ، أسفرت النتائج إلى أن الراشدين والمراهقين الذين يتحصلون على درجات عالية في إستراتيجية التهميش على مقياس الثقاف يظهرون نسبة عالية من الأعراض الاكتئابية⁽²²⁾.



الشكل رقم (01): العلاقة بين خطر الإصابة بالاضطراب النفسي واستراتيجيات الثقاف

في دراسة أخرى قام فيها لو وآخرون (Law et al, 2009) بدراسة العلاقة بين مستوى الثقاف وخطر الانتحار عند مجموعة من الشباب الآسيوي الأمريكي مكونة من 280 فردا ذكورا وإناث في كاليفورنيا، أسفرت الدراسة على أن الدرجات المرتفعة على مقياس الثقاف تكون عموما مصاحبة لدرجات عالية من خطر وقوع الفعل الانتحاري⁽²³⁾.



الشكل رقم (02): العلاقة بين عملية الثقاف كخبرة وقلق الثقاف وأفكار الانتحار

لقد ساهمت العديد من الدراسات الوبائية بقوة في فهم العلاقة بين الثقافة والاضطرابات النفسية والأمراض الجسدية، ففي دراسة تناولت مدى انتشار الأمراض الوعائية والقلبية على مجموعة من الأفراد اليابانيين المقيمين في اليابان وهاواي وكاليفورنيا، أسفرت نتائجها على أن نسبة انتشار هذا المرض لدى الأفراد المقيمين في اليابان هي 25.4% بينما تصل نسبة انتشارها لدى اليابانيين المقيمين في هاواي 34.7% في حين تتجاوز نسبة انتشارها لدى الأفراد اليابانيين المقيمين في كاليفورنيا نسبة 44% من مجتمعهم الكلي، نفس النتائج تحققت لمتغير آلام الصدر وارتفاع نسبة الكولسترول في الدم بمعنى ارتفاع نسبة الإصابة بهذه الأمراض لدى الأفراد المهاجرين إلى و م أ.

كما أسفرت دراسة أخرى قام بها مركز البحث الكندي الوطني للصحة العمومية (2005) على عينة مكونة من 1972 فردا من المهاجرين إلى كندا لدراسة متغير ارتفاع الضغط الدموي في هذه العينة إلى أن التعرض العنيف إلى الثقافة الغربية واكتساب نمط المعيشة الغربي مرتبط بشدة بزيادة نسبة ظهور مرض ارتفاع الضغط الدموي لدى أفراد العينة⁽²⁴⁾.

هذه الدراسات في مجملها تؤكد الصلة الوثيقة بين الحالة النفسية للفرد وثقافته، بمعنى أن أي تقاطب يعيشه الفرد في ثقافته من خلال ازدواجية الخطاب الثقافي الموجه له في مجتمعه سيقابل باضطرابات نفسية وجسدية واجتماعية لدى الفرد خاصة إذا عجز في تحقيق التوازن بين متطلبات الحداثة في مقابل الرغبة في الحفاظ على التقاليد وشريعة الأسلاف.

وعلى العموم يجب علينا النظر إلى أن العلاقة بين عملية التثاقف والتكيف النفسي والاجتماعي لدى الأفراد على أنها عملية معقدة من التفاعلات بين العوامل التاريخية والاجتماعية والثقافية مع الخصائص النفسية للفرد واتجاهاته الشخصية.

خاتمة:

توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى أن عملية الثقافة عملية شديدة التعقيد يتقاطع فيها السيكولوجي مع الاجتماعي والأنثربولوجي والسياسي..، فلقد أصبحت ظاهرة حتمية تمس مختلف المجتمعات والشعوب في ظل العولمة.

تمثل عملية الثقافة حالة عامة من الصراع والازدواجية الثقافية لدى الأفراد بين ما هو تقليدي موروث وما هو حديث مرغوب. الشيء الذي يجعل الفرد يعيش ثقافته بشكل تقاطعي مما يدفعه إلى إتباع استراتيجيات ثقافية مختلفة (التشابه، الاندماج، الانفصال، التهميش) بهدف تحقيق التوازن والتكيف مع هذه الوضعية. لكن إذا ما فشل بسبب عقبات ذاتية أو ثقافية وبيئية يظهر لديه توتر شديد ومستمر قد يفضي في النهاية إلى اضطراب الهوية وظهور الاضطرابات النفسية كالحصر والاكئاب لدى الأفراد. لذلك يتوجب على القائمين على الشأن العام تسطير سياسات ثقافية موجهة لمختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية تأخذ بعين الاعتبار هذه الظاهرة (سياسة ثقافية موجهة)، وأن يخططو مناهج تعليمية ذات مناخ منفتح على الآخر في مواد ومحتوياته ولغاته ورموزه مع الاهتمام بالجانب النفسي والروحي للأفراد، حتى لا نحصل على أجيال تعيش خارج التاريخ ولا تجيد إلا لغة الانفصال واليأس والعنف.

❖ هوامش البحث

(1) BRAMI. A: **L'acculturation ; étude d'un concept**, DESS, No121, pp 54 -63, Paris. France. (2000)., P 54.

(2) GUERRAOU. Z: **psychologie interculturelle** :Armand colin, Paris ; France. (2000)., P 16.

(3) Unesco: **Phénomène d'acculturation et déculturation dans le monde contemporain**, Colloque d'orientation établie par Unesco, (Unesco, Paris, Novembre 1980)., P 05.

(4) الخطابي عزالدين : **سوسيولوجية التقليد والحدائنة بالمجتمع المغربي** ، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، المغرب، (2001). ص 24.

(5) Unesco: op.cit., p 07.

(6) الخطابي عزالدين : **مرجع سبق ذكره، ص 27.**

(7) المرجع السابق، ص 30.

(8) TOUALBI. N: **L'ambivalence culturelle ou des reliquats psychologiques de l'histoire coloniale**, Revue algérienne de psychologie et des sciences humaines, édition n 01, OPU, Alger (1985)., P 11.

(9) BRAMI. A : **L'acculturation ; étude d'un concept**, op.cit., p.55.

(10) BRAMI. A: Ibid., p 56.

(11) الخطابي عزالدين : **مرجع سبق ذكره، ص 30.**

(12) طايبي مريم: **إشكالية الثقافة في الجزائر: بين المقاومة والاستلاب**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، (رسالة ماجستير غير منشورة) 2007 ص 91.

(13) BRAMI. A: **L'acculturation ; étude d'un concept**, op.cit., p.57.

(14) طايبي مريم: مرجع سبق ذكره، ص 11.

(15) طوالي نورالدين: **في إشكالية المقدس، منشورات عويدات، الطبعة (1)**، بيروت، (1988) ص 30.

(16) BRAMI. A: **L'acculturation ; étude d'un concept**, op.cit., p.59.

(17) Gaillard. A: **Les répercussions du processus d'acculturation des jeunes requérants d'asile sur les familles**, Mémoire de fin d'étude pour l'obtention du diplôme HES d'assistante sociale, Haute Ecole Valaisanne Santé-Social, Septembre 2006, Suisse,(2006)., P 24.

(18) Gaillard. A : Ibid., P 25.

(19) Yo Jackson et al: **Encyclopaedia of multicultural psychology**, Sage Publications, Inc. California, USA. (2006)., P 26.

(20) HIJAZI. S: **L'identité libanaise entre l'appartenance confessionnelle et le partage culturel**, Thèse de Doctorat (N.R.) en psychologie sociale, Université Lumière Humanités et Sciences Humaines, Lyon 2; France, (2005). P 42.

(21) BRAMI. A: **L'acculturation ; étude d'un concept**, op.cit., P 61.

(22) DOH. N-R: **Relationships among English Proficiency, Acculturation, Identity, and Mental Health**, Miami University of Ohio, USA, (2001). PP 05-07.

(23) NHI-HA.T & al: **Handbook of Mental Health and Acculturation in Asian American Families**, Humana Press, New York. USA, (2009). P 25.

(24) LARA. M & al: **Acculturation and Latino health in the United States**, Annu Rev Public Health, 2005, No 26: 367–397, California.USA, (2005)., P 379.